أترجى قيامة الموتى

دير القديس يوحنا المعمدان المقدس، كارایاس، أتيكي، اليونان

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إنه الحدث المؤكّد لدى كل واحد منّا بشكل تامّ: سيأتي الموت عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، بالنسبة لمعظم الناس، تبقى نهاية الحياة غير مرغوب بها إلى حد كبير ويجب مقاومتها بحزم. هذا لأننا، خلال مسار حياتنا على هذه الأرض، لم نتغذَّ على توقّع "الآتي" ولا نعتمد على حجر زاوية الرجاء في المسيح. كوننا أحفاد آدم، نتفاجأ بظاهرة الموت، لأننا خُلقنا بالتأكيد للحياة الأبدية. إن رؤية جسد أحد الأحباء يرقد بلا نَفَس تحجب رجاءنا أيضاً.

اليوم، على وجه الخصوص، ينكبُّ الناس على ما يمكن رؤيته، وما يمكن إثباته في المختبر أو تقديمه كأمر مسلّم به، أمر يتخطى الشكّ. هذا هو سبب فقدهم لكل الاهتمام بما يحدث بعد الموت، وعلى وجه الخصوص بما أمات بداخلهم كل رجاء بالقيامة والخلود.

يشير القديس يوحنا الذهبي الفم إلى الظاهرة الغريبة التالية: يستثمر الزارع رزقه في الأرض الطريّة التي يحرثها بعمق ويغذّيها بوفرة بالبذور الجيدة والرجاء. حقيقة أن البذور سوف تتعفن وتختفي لبعض الوقت لا تعنيه بطريقة سلبية، ولا تحرمه من توقعه لنمو جديد وحصاد جيد. ولكن عندما يتعيّن علينا وضع جسد هامد لشخص نحبه في الأرض المفلوحة حديثاً، فإننا لا نشعر بنفس الأمل واليقين مثل الزارع. من ثمّ، فإن غياب العلامات الخارجية للحياة يتساوى مع خسارة لا رجعة فيها. هذا لأننا لا نملك في داخلنا رؤية "الربيع الأبدي" وفرحة توقع ذلك اليوم الذي نشتاق إليه والذي "لا يعروه مساء". لقد صار ناس "هذا العصر" أحاديي البعد لدرجة أنهم اعتادوا على تعريف كل شيء من خلال القوانين الطبيعية.

هذه المأساة البشرية، التي تتخذ أشكالاً مختلفة في أوقات مختلفة، لها نقطة انطلاقها يوم سقوط آدم وحواء"الذي لا يصحُّ ذكره". بعصيانهما، قطعا علاقتهما بـ "مصدر الحياة"، وسقطا من جمال شِبه الله وصاروا وجهاً لوجه، مرة واحدة وإلى الأبد، مع نتانة الموت.

يكشف لنا الكتاب المقدس الشيطان، المصدر الشرير، "مخترع" الموت. ومع ذلك، لا يؤمن الناس، وهم "أغبياء وبطيئو القلوب" (لوقا ٢٤:٢٥). إنهم لا يقبلون بسهولة قيامة المسيح، لذلك قول الملاك: "لقد قام. ليس هو هنا" (مرقس ١٦:٦)، لا يعني شيئاً لهم ولا يطمئنهم من جهة قيامتهم.

إلى حد كبير، يتركّز عدم الإيمان بين الناس اليوم على قيامة الأجساد. هذا لأنهم لا يعرفون أن الموت، هذا "العقاب اللطيف" كان له تأثير وقوة مدمرة فقط حتى ذلك الفجر المتفائل في "أول الأسبوع" عندما وجدت النساء قبر المسيح فارغاً (مرقس ١٦:٢). لأن الرب القائم قد أطاح بالموت و "فتح أبواب الفردوس مرة أخرى". في ذلك الفجر، عبَرَ آدمُ المنفي بابتهاجٍ إلى الجانب الآخر، وداس على الصليب، على "جسر الحياة"، متّبعاً الكلمة القائم من بين الأموات والإله.

إن آلام المسيح وقيامته هما حدثان مترابطان ومكمّلان لبعضهما البعض، وهما تتويج لنشاطه الفدائي على الأرض. كما أن قيامة المسيح هي ملازمة لموته على الصليب، كذلك، عبورنا من حياتنا الأرضية إلى الأبدية ليس فناءً، بل تجاوزاً للفساد الأرضي و "ارتداءً لحلة عدم الفساد".

إن قيامة الأموات هي حقيقة أساسية في إيماننا. يقول القديس بولس إنه بدون يقين قيامتنا ، إيماننا لا معنى له وباطل (١ كورنثوس ١٧:١٥): " فَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ! وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ.. وَلكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ. فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ. لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ. وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي رُتْبَتِهِ: الْمَسِيحُ بَاكُورَةٌ، ثُمَّ الَّذِينَ لِلْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ. (١ كورنثوس ١٣:١٥-٢٣).

فالموت، إذن، قد هُزم بشكل قاطع، وقيامة الأموات أمر مفروغ منه. هذا هو السبب في أن آباءنا القديسين يتحدثون بيقين عن الربيع الذي من المؤكد أنه سيتبع فساد الشتاء، الفساد والتحلل الناجم عن موتنا في الجسد.

بالتأكيد سنعيش مرة أخرى في الجسد، ولكن "بهيئة أخرى" (مرقس ١٢:١٦). سنقوم ولن يخضع أحد منا من ثم لقانون الفساد والفناء. محادثة إرميا مع الله دقيقة للغاية هنا. الكلمة التي أتت من الرب إلى إرميا قائلة "«قُمِ انْزِلْ إِلَى بَيْتِ الْفَخَّارِيِّ وَهُنَاكَ أُسْمِعُكَ كَلاَمِي». فَنَزَلْتُ إِلَى بَيْتِ الْفَخَّارِيِّ، وَإِذَا هُوَ يَصْنَعُ عَمَلًا عَلَى الدُّولاَبِ. فَفَسَدَ الْوِعَاءُ الَّذِي كَانَ يَصْنَعُهُ مِنَ الطِّينِ بِيَدِ الْفَخَّارِيِّ، فَعَادَ وَعَمِلَهُ وِعَاءً آخَرَ كَمَا حَسُنَ فِي عَيْنَيِ الْفَخَّارِيِّ أَنْ يَصْنَعَهُ. فَصَارَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: «أَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ كَهذَا الْفَخَّارِيِّ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ هُوَذَا كَالطِّينِ بِيَدِ الْفَخَّارِيِّ أَنْتُمْ هكَذَا بِيَدِي يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ.»"

المهم هو أن الخزاف هو أبونا القدير الذي من قبل الدهور، الكلي الصلاح. لهذا نعلق رجاءنا عليه حتى من هذه الحياة هنا، كتذوق مسبق للحياة الأبدية وملكوته خارج الزمان.

إذن، قيامة الأموات ستتم بالتأكيد. سيرتفع صوت بوق الملاك بالتأكيد (رؤيا ١١:١٥-١٨). لكن المهم بالنسبة لنا هو أننا يجب أن ننجز شيئًا في حياتنا على الأرض من أجل تقديس نفوسنا وأجسادنا، حتى لا تكون القيامة "للدينونة" بالنسبة لنا، بل "للحياة الأبدية" (متى ٤٦:٢٥).

إن لذكر الموت واليقظة والتهيؤ المستمر لخروجنا الوشيك من العالم إلى الفردوس فائدة خاصة لنا في هذا الاستعداد. إن ذكر الموت ينعش الروح وينمّي وجودنا، ملزماً إيانا على الطريق الذي لا ينتهي "من مجد إلى مجد" (٢ كورنثوس ١٨:٣). ينسجم ذكر الموت أيضاً مع رغبة الخليقة كلها، التي، على الرغم من أنها كانت تئن في آلام المخاض حتى الآن (رومية ٨ ، ٢٢) ، إلا أنها لا تزال تتغذى بالرجاء وتنتظر تحررها و"ما وراء" الأبدي.

إن المشهد الصوفي لـ"الضفة المقابلة"، لوطننا الأبدي، يحصننا على الطريق نحو التقدّس وفي جهودنا لإعداد أنفسنا، قدر استطاعتنا، لـ "اللحظة العظيمة"، اللقاء الرؤيوي مع "المحبوب الوحيد".

إلى ذلك، فإن توقع انتقالنا إلى وطننا السماوي الحقيقي هو تشجيع لنا على تطوير علاقات أوثق مع مواطني السماء، الملائكة القديسين، كما مع إخوتنا وأخواتنا الذين تمجدوا، والذين عاشوا في الرب ورقدوا على رجاء

الحياة الأبدية. لأن الملائكة القديسين وآباءنا وإخواننا الذين رحلوا عن هذه الحياة بالفعل يراقبون جهادنا ويدعموننا بمحبةٍ بشفاعاتهم المقدسة لدى مانح حياتنا وراعيها.

إن ذكر الموت وحفظ الوصايا وعلاقتنا بالعالم الملائكي والمنتقلين عنا تؤدي إلى تناقص مستمر في الأنا. إنها تساعدنا أيضاً على قطع إرادتنا وإخضاع حياتنا ووجودنا بالكامل لمشيئة الله. أخيراً، إنها تقوينا في تقبّلنا لوفاة أحبائنا، وفي الوقت نفسه، تشجعنا على الاهتمام بأنفسنا والاستعداد بجدية أكبر لمسألة انتقالنا.

عندما تتجه بوصلة حياتنا نحو مقصدنا، يفقد مفهوم الموت طبيعته المهدِّدة ويتحول إلى "منظر ما هو غير مرئي"، إلى امتداد لوجودنا إلى أبدية الله، وفي النهاية إلى توقع تلك اللحظة الفريدة من نوعها التي ستأخذنا إلى "عيدنا العظيم".

إذا كان كل هذا في مكانه، فإن حياتنا تكتسب معنى مختلفاً ونسرع لتكميل توبتنا وجعل أنفسنا أوعية لميرون الحياة الجديدة. لأن كل واحد منا يعرف أنه في ذلك الوقت، سيُستَعلَن كل شيء وستُكشَف جميع أعمالنا، كل النسيج الذي حيك خلال حياتنا على زيغ، صورة الله التي فيها خلقنا.

بالنسبة لأبناء المسيح الحقيقيين، الموت هو عيد عظيم، استعداداً له نجاهد ونعمل كل أيام حياتنا. إن الجهاد للتهيئة لهذا العيد يحرّك أيضاً روح التوبة واليقظة واستعداد العذارى الحكيمات في المثل. كما أنه يجعلنا كائنات تسبيح وشكر، خاصة في أوقات الألم وفي ضيقات الحياة. على هذا المنوال، يكون للمؤمنين تذوق مسبَق للملكوت الآتي وفرح ببعدهم الأبدي في المسيح واعتراف بأن "الساعة آتية وهي الآن" (أنظر يوحنا ٢٣:٤). إلى هذا، فإن هذا الموقف من الحياة يحوّل الزمن الحالي إلى جسر صلب يمكن للمسيحيين أن يجتازوه بأمان ويدخلوا إلى مظلة أبنائه الأبدية، مظلة " الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ" (رؤيا ١٤:٧).

في نور الأبدية الذي لا يغرب، سيتم الكشف عن صورة حياتنا. عندها ستشرق أعمالنا وسيظهر الجهد الذي بذله كل واحد منا للحفاظ على محبته لله ولأخيه مصونة، وسيظهر الإيمان الذي لا تشوبه شائبة. هناك سنرى مقدار صبرنا. سوف يتّضح من ثمّ ما إذا كنا قد عملنا مثل "وكيل أمين'' (لوقا ٤٢:١٢)على أرضية صورة الله التي أنعم علينا بها الآب الخالق الكلي الصلاح عندما أخذنا كياننا منه، مع إمكانية أن نكون أولاده في كل الأبدية (يوحنا ١٢:١).

كل شيء إذن، يجب تفسيره من منظور ما بعد القبر. على غرار الحياة الروحية، تبدأ حلاوة ثمار جهادنا في الظهور بعد أن نقبل بالفعل صليبنا الشخصي ونتخلّى عن إرادتنا، لذلك أيضاً، تصبح المسرات الأبدية والخالدة مرئية بشكل أساسي عندما نخترق حاجز الأنا الأخير عندنا. بعبارة أخرى، عندما "في كل شيء ومن جهة كل شيء''، نودِع جسدنا وروحنا في يديه كتقدمة أخيرة لشكر مَن أعطانا الحياة والحرية كهدايا ثمينة و'' هِبَاتِ بِلاَ نَدَامَةٍ''. (رومية١١:٢٩).

إذا عاش المؤمنون وتقدّموا في هذه الخبرات، يمكنهم حينئذٍ الوقوف في وجه قسوة هذه الحياة ومعضلاتها، لا محاولةً لتجنبها، بل إكراماً لصليبهم ومقاربة لكل أحزان الحياة مثل لمس "هدب ثوبه" (متى ٢٠:٩). وبهذا،

يحصل المؤمنون على تذوق مسبَق للاحتفال السماوي العظيم، فلا يتحمّلون بصبر وحسب كل حزن ومحنة، بل أيضًا يرغبون، أو بالأحرى يسارعون إلى الوصول إلى وطنهم الأبدي (القديس إغناطيوس المتوشح بالله). بعبارة أخرى، إن موت الجسد ليس النهاية بل البداية. إنه الولادة لحياة جديدة أعطانا إياها المسيح بصليبه وقيامته المقدسة.

من بعد قيامة المسيح، لم يعد المؤمنون يحزنون على الذين انتقلوا من هذه الحياة، ولا يهتمون بما سيحدث عندما يتركون وراءهم الأشياء الزائلة على هذه الأرض. إنهم يعيشون ببساطة لكي يتقدّسوا، من أجل سيدهم الذي تألّم وقام، وهم يرتلون بفرح في كل الأوقات: "المسيح قام".

Source: Holy Monastery of St John the Vaptist, Kareas Attikis. I Await the Resurrection of the Dead (2 parts). Pemptousia. Religion / Theology. 15 April 2023 and 16 April 2023.
https://pemptousia.com/2023/04/i-await-the-resurrection-of-the-dead-part-1/ and
https://pemptousia.com/2023/04/i-await-the-resurrection-of-the-dead-part-2/